التناص الديني في رواية (برج الرومي أبواب الموت) للكاتب سمير ساسي

د / مصطفى محمد محمد زنين

جامعة غريان / كلية الآدب الأصابعة / قسم اللغة العربية

ملخص البحث

عرفت الساحة النقدية الحديثة ظهور نظريات نقدية جديدة شكلت نقطة حاسمة في مسار الدراسات النقدية الحديثة لاسيما في مجال النصوص الأدبية، فالنص الأدبي أصبح غير منغلق عن نفسه من خلال نظرية التناص التي شكلت تغيراً جذرياً في النظرة إلى النص الأدبي، حيث جعلت منه نصاً منفتحاً في فضاء النصوص الأخرى، وقد أسهم النقاد العرب قديماً وحديثاً في دراسة هذه النظرية وكان لهم آراء نقدية في هذا المجال، وفي هذا البحث سنتناول بالدراسة والتحليل التناص الديني في رواية (برج الرومي أبواب الموت) للكاتب سمير ساسي ،معتمداً على المنهج الوصفي التحليلي، مخصصًا المبحث الأول لمفهوم التناص في اللغة والاصطلاح، أم المبحث الثاني فقد خصص لدراسة التناص الديني في الرواية وقسمته إلى قسمين أولاً القرآن الكريم، ثانياً الحديث النبوي، ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وأخيراً قائمة المصادر والمراجع .

Research Summary

The modern critical arena witnessed the emergence of new critical theories that constituted a decisive point in the path of modern critical studies, especially in the field of literary texts. The literary text became not closed off from itself through the theory of intertextuality, which constituted a radical change in the outlook on the literary text, as it made it an open text in a space. Other texts. Arab critics, ancient and modern, have contributed to the study of this theory and have had critical opinions in this field. In this research, we will study and analyze religious intertextuality in the novel (Rumi's Tower, Gates of Death) by the writer Samir Sassi, relying on the descriptive and analytical approach. The first section was devoted to the concept of intertextuality in language and terminology. The second section was devoted to studying religious intertextuality in the novel, and divided it into two parts: first, the Holy Qur'an, second, the Prophet's Hadith, then the conclusion, which contains the most important results reached by the research, and finally a list of sources and references.

تمهيد :

تُعد نظرية التناص من أهم النظريات الحديثة في الساحة النقدية بما أثارته من جدل وتغيرات في بنية النص الأدبي، حيث لم يعد النص الأدبي منغلقاً على نفسه، بل أصبح منفتحاً على غيره من النصوص ومتشابكاً معها متأثراً ومؤثراً فيها.

فمصطلح التناص هو مصطلح حديث ظهر في الأدب الأوربي وتطور على يد العديد من النقاد الغربيين حتى أصبح نظرية شائعة في الساحة النقدية الحديثة، وقد تأثر الأدب العربي الحديث كغيره من الآداب الأخرى بهذه النظرية (التناص) وتمّ تطبيقها على النصوص الأدبية العربية شعراً ونثراً لبيان مدى أهميتها في تحليل النص الأدبي ودراسته.

ومما تحسن الإشارة إلى ذكره هنا أن بعض النقاد العرب يرى أن هذه النظرية لها جذور في الأدب العربي القديم ولكن لم تكتمل لتصبح نظرية وإن كانت بمسميات مختلفة ولكنها تدخل تحت مصطلحات التناص، ولكن المشكلة التي واجهت النقاد العرب حديثاً هي كيفية نقل المصطلح من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية وتحديد معناه ودلالاته في مفهوم واحد بخلاف ما هو موجد الآن في الساحة النقدية من تعدد الآراء واختلاف وجهات النظر بين النقاد العرب في وضع مصطلح موحد لمفهوم التناص، مما جعل الساحة النقدية تعج بالعديد من المفاهيم المختلفة حسب ترجمة كل ناقد ومفهومه لهذا المصطلح، وهذا الأمر صعب من مهمة الباحث في دراسة هذه النظرية وتطبيق ذلك على الأدب العربي .

فالنقد العربي مطالب باستيعاب مفهوم التناص ودلالاته، ومستوياته، وأشكاله المتعددة، حتى يتمكن من تكوين قاعدة علمية ورؤية نقدية ينطلق منها في إقامة دراسة حول هذه النظرية، والتواصل مع الأدب الغربي ومعرفة عوامل التحول ومرجعياته ومصادره وكيفيته، وهذا يؤكد دور النقد العربي في النهوض بهذه العملية الثقافية الواسعة التي صار يحتاج إليها للخروج من حالته الراهنة .

إن التحليل النصي للعمل الروائي(برج الرومي أبواب الموت)يتناول النص في سياق حواري يربط النص بالنصوص الأخرى التي تتفاعل معه منطلقاً من فكر ثأر عن الواقع الذي يعيشه الكاتب معبراً عن الحالة الشعورية التي مرّ بها والأحداث التي أثرت في حياة الكاتب.

المبحث الأول : مفهوم التناص.

1 – مفهوم التناص لغة .

التناص مشتق من الفعل نصص، ولهذا ارتبط التناص بالنص، وقد ورد في المعاجم اللغوية النص بعدة معان منها:

نصص النّص رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصاً رفعه وأظهره . ووضع على المنصة أي على غاية الشهرة والظهور ، ونص المتاع جعل بعضه على بعض ، ونص الدابة رفعها في السير، والنص والنصيص السير الشديد والحث ، ونص كل شيء منتهاه، قال الأزهري: النص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها، ونصنصت الشيء حركته[1] وكلها بمعنى الظهور والازدحام والحركة والمحاورة وبلوغ الغاية وغيرها.

فالنص من خلال هذه المعان اللغوية يصبح كائناً جديداً لا يتحقق وجوده إلا بالتلاقي والتقابل مع نصوص أخرى ،،فهو انتقال من حالة السكون إلى حالة الحركة، لتتقابل نصوصه مع بعضها في علاقة تأثير وتأثر وهذا مما يساعد النص الأدبي أن يتجاوز حدوده إلى لغات أخرى ومناهج جديدة تكون داعماً له في مواكبة التطور الثقافي والنقدي الذي تشهده الساحة الثقافية النقدية في العالم .

2 – مفهوم التناص اصطلاحاً:

اختلف النقاد في تحديد مفهوم موحد لمصطلح التناص وتعددت الآراء في ذلك وهذا راجع إلى مرجعية كل ناقد التي انطلق منها في تحديد مفهوم للتناص،بل وصل الاختلاف بينهم في

تسمية المصطلح، وإن رسخ مصطلح التناص في الوسط النقدي الذي أطلقته الناقدة جوليا كريستيفا على غيره من المصطلحات الأخرى،إلا أن هناك من يرى أن مصطلح التناص لا يحدد المفهوم الدقيق للمصطلح، مثل سعيد يقطين حيث استعمل مصطلح (التفاعل النصي) بدلا من التناص لأنه يعتبره ((واحد من أنواع التفاعل النصي)) [2]

وتُعرّف جوليا كريستيفا التناص بأنه ((ترحال للنصوص وتداخل نصّي ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى))[3] فهو تداخل بين النصوص وإعادة تكرارها وبهذا كان لها السبق في وضع نظرية التناص وتحديد مفهومه من خلال الدراسات التطبيقية لهذا المصطلح، وفسحت الطريق لمن جاء بعدها من النقاد وفتحت آفاقاً جديدة للدراسات النصية.

أمّا رولان بارت فنظرته للتناص تختلف عن غيره من النقاد يقول:((إن التناص الذي يدخل فيه كل نص لا يمكن أبداً أن يُعتبر أصلاً للنص: إن البحث عن أصول الأثر والمؤثرات التي خضع لها رضوخ لأسطورة السلالة والانحدار. أمّا الاقتباسات التي يتكون منها النص فهي مجهولة الاسم ولا يمكن ردها إلى أصولها. ومع ذلك فقد سبقت قراءتها: إنها اقتباسات لا تقدم نفسها كذلك ولا توضع بين أقواس)) [4] ، فالنص الأدبي يصبح مالكاً للنصوص السابقة، وبذلك يتلاشى الماضي في الحاضر وينصهر وينقطع فيه ولا يبقى إلا الحاضر وبذلك يصل إلى نتيجة هي أن ((قيام التناص يلغي التراث ويقضي عليه))[5] ، فالتراث مجاله الحاضر الذي يستمد منه وجوده، وهذا ما نجده في ثنايا النصوص الأدبية حيث التقى الماضي بالحاضر، وبهذا يمكن القول أن (رولان بارت) لم يقدم إضافة جديدة لما قالته (جوليا كريستيفا) في ظاهرة التناص، لكنه شرح بعض ما قالته وبيّن مفهومه

ويعرف مارك أنجينو التناص بأنه ((كل نص يتعايش بطريقة من الطرق مع نصوص أخرى وبذلك يصبح نصاً في نص تناصاً))[6] فهو لم يختلف عن مفهوم كريستيفا في للتناص في كونه تقابل النصوص وتكرار لها .

أمّا جيرار جنيت فينطلق في تحديد مفهوم للتناص من تحديده لمفهوم (التعالي النصي) كما يُسمّيه وهو ما يجعل النصّ ((في علاقة خفية أم جلية، مع غيره من النصوص))[7] .

ثم يأتي بمصطلح أخر وهو(التداخل النصي) ويقصد به((التواجد اللغوي سواء أكان نسبياً أم كاملاً أم ناقصاً لنصٍ في نصٍ آخر))[8] وهنا يلتقي مع من سبقه في تحديد مفهوم التناص وإن اختلفت المصطلحات ، فقد اتفقوا على أن التناص هو تداخل نصٌّ أدبي في نصٍ آخر،

ويرى محمد مفتاح أن مفهوم التناص مفاده ((أن التناص هو تعالق(الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة))[9] وهو بذلك يتفق مع من سبقه في مفهوم التناص مشيراً إلى أن ((التناص شيء لا مناص منه لأنه لا فكاك للإنسان من شروطه الزمانية والمكانية ومحتويتها، ومن تاريخه الشخصي أي من ذاكرته. فأساس انتاج أي نص هو معرفة صاحبه للعالم، وهذه المعرفة هي ركيزة تأويل النص من قبل المتلقي أيضاً))[10].

أمّا الناقد عبدالله الغذامي فقد تناول التناص تحت مسمى (التداخل النصي) فهو يرى أن النص الأدبي لايمكن عزله عما سبقه من النصوص فهو كالشجرة التي تضرب جذورها في الأعماق((ولئن كان مفهوم جسدية النص وكونه كائناً حياً ومركباً هو لب الفكرة فيما قلناه ونقوله عن نصوصية النص فإن هذه الجسدية لا تقوم على عزل النص عن سياقاته الأدبية والذهنية، ذاك لأن العمل الأدبي يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تماماً مثل الكائن البشري، فهو لا يأتي من

فراغ كما أنه لا يفضي إلى فراغ. إنه نتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي، وهو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه)) [11] .

وممّا يحسن ذكره هنا أن مفهوم التناص ونظرياته ليست جديدة كما يرى بعض الباحثين، وإنما هو له جذوره في التراث العربي القديم ولكن بمسميات ومصطلحات مختلفة، وقد أشار إلى ذلك النقاد العرب القدامى مثل الناقد الجرجاني الذي يقول: ((ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا، ثم العصر الذي بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة، وأبعد من المذمة، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها،... وأتى على معظمها، ومتى أجهد نفسه، وأعمل فكره، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل المعنى يظنه غريباً مبتدعاً، ونظم بيتاً يحسبه فرداً مخترعاً، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه، أو يجد له مثلاً يغضّ من حسنه، ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بث الحكم على شاعر بالسرقة)) [12]، فالجرجاني يرى أن العمل الأدبي لا يمكن أن يكون منغلقاً عن نفسه، فالشاعر ينظم قصائده معتقداً أنه لم يسبقه إلى معانيها وألفاظها أحد، ولكن عند اطلاعه على دواوين غيره من الشعراء يجد أنه قد سبقه إليها الشعراء.

المبحث الثاني :التناص الديني في رواية برج الرومي أبواب الموت:

ويقصد به ((تداخل نصوص دينية مختارة عن طريق الاقتباس أو التضمين من القرآن الكريم والحديث الشريف، ... مع النص الأصل بحيث تنسجم هذه النصوص مع السياق الروائي وتؤدي غرضاً فكرياً أو فنياً أو كليهما معاً)) [13] فالكاتب يستحضر آيات قرآنية، أو أحاديث نبوية يضمنها في نصه حتى تضفي على العمل بعداً فنياً وجمالياً وذلك للتأثير في نفسية القارئ.

أولاً القرآن الكريم :

القرآن الكريم كتاب الله ومعجزة نبيه محمدﷺ الذي أعجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله لما فيه من بلاغة وفصاحة لانت لها القلوب واستقامت بها النفوس فهو الكتاب الإلهي الذي لم يتغير أو يحرف لأن الله عهد لنفسه بحفظه قال تعالى ﴿إِنَّا نَحنُ نَزَّلَنَاٱلذِّكرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [14]

وبما أن النصوص الأدبية في العصر الحديث أصبحت منفتحة على غيرها من النصوص ولم تعد منغلقة، فقد كان القرآن الكريم منهلاً تستقي منه النصوص الأدبية وتستمد منه مادتها في كتابتها الشعرية والنثرية .

إن تأثر الشعراء والأدباء بالقرآن الكريم أمر لا يختلف عليه اثنان، فالنصوص الشعرية بعد الإسلام أثبتت استعانة الشعراء والأدباء بمعاني القرآن وأساليبه ولغته وقصصه وذلك للتأثير في المتلقي لما للقرآن من أثر في نفوس المتلقين .

وتعد رواية (برج الرومي أبواب الموت) للكاتب سمير ساسي من الأعمال الأدبية التي نهلت مادتها من القرآن الكريم، حيث أصبح مصدراً مهماً في بناء الرواية فقد أضفى على النص الروائي دلالات ومعان جديدة تبين مدى ثقافة الكاتب ووعيه الديني .

جاء التناص الديني في رواية (برج الرومي أبواب الموت) بعدة أنواع وألوان ممّا أضفي على الرواية جمالية أدبية، حيث أن التناص تنوع حسب طبيعة السرد الروائي وحالة الكاتب المعاشة التي أظهرت معاناته داخل السجن وخارجه .

وممّا يحسن ذكره في البداية أن الكاتب اعتمد في روايته على التناص الديني وخاصة القرآن الكريم حيث تجد في الصفحة الواحدة أحياناً العديد من حالات التناص[15] وهذا يظهر مدى ثقافة الكاتب الدينية وإلمامه بكتاب الله وسنة نبيه ممّا جعله يوظف هذا التناص في بناء روايته دون أن يخلّ ببناء الرواية، بل أضفى عليها دلالات وتشبيهات زادت من القيمة الفنية للرواية.

فالتناص في رواية (برج الرومي أبواب الموت)يأخذ عدة منحنيات مختلفة تمثل الحالة النفسية التي عاشها الكاتب وما تعرض له من ضغوطات وتعذيب أثناء وجوده في السجن والمعاملة القاسية من قبل المسؤولين عنه ، ثم ملاحقته ومتابعة تحركاته وتصرفاته بعد خروجه من السجن،

ممّا قيّد حريته وجعله يعيش حياة مكبلة كما ورد في السرد الروائي، ولهذا جاء التناص القرآني معبراً عن هذه الحالة التي تعاني منها الشخصية الروائية وتتمثل في الكبت والظلم بسبب معارضتها للنظام ومطالبتها بحرية التعبير وقبول الرأي الآخر وغيرها ممّا كانت تطالب به النخبة المعارضة للنظام .

وسنتبع في هذا البحث تقسيم التناص إلى قسمين هما : التناص المباشر ، والتناص غير المباشر مبينا العلاقة بين النص الروائي والنص القرآني مكتفياً ببعض النماذج التي من خلالها تتضح أهمية التناص ومدى توظيف الكاتب لهذه الظاهرة في الرقي بالمستوى الفني للرواية.

أولاً التناص المباشر:

وهو يمثل النصوص المقتبسة حرفياً من القرآن الكريم، حيث جاءت هذه النصوص منسجمة مع النص الروائي ممّا أضفى عليه دلالات وتشبيهات وارتباطا في الأسلوب فكرياً وفنياً، وهذا يدل على ثقافة الكاتب وإلمامه بقواعد الكتابة الروائية بحيث يتم فيها عملية التداخل النصي بين النصوص لإخراج نصٍ جديدٍ.

وأول نماذج التناص المباشر في الرواية تروي قصة بطل الرواية (فخر الدين) عندما خرج من السجن وبدأ قراءة رسالة بعثها إلى أخيه قبل خروجه من السجن جاء فيها ((الكتابة امتداد كوامن النفس امتداداً أفقياً يستوعب الماحول ليرتقي الكل في رحلة الكدح المتواصل نحو الله لذلك ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء)) [16] ففي هذا المقطع من الرواية نجد أن الكاتب قد استعان بقوله تعالى : ﴿ أَلَم تَرَ كَيفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلا كَلِمَة طَيِّبَة كَشَجَرَة طَيِّبَةٍ أَصلُهَا ثَابِت وَفَرعُهَا فِي ٱلسَّمَاءِ تُؤتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينِ بِإِذنِ رَبِّهَا وَيَضرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ [17] فالكاتب ربط بين الكتابة التي ترتقي بالإنسان نحو ربه وتزيده قوة ونشاطاً نحو نهاية سعيدة للرحلة نحو الآخرة بالكلمة الطيبة وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها بالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهذا يبين أهمية الكتابة الهادفة .

وفي نموذج آخر للتناص المباشر يروي الكاتب على لسان أحد شخصيات الرواية وهو (أبو المغاليق) ما كانت عليه حال البلاد فيقول :((كنا على عهد أمير المؤمنين القائم بأمرنا أدام الله عزه وحماه، كنا قرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ...))[18] فهو يمثل حال تلك القرية التي كانت تعيش نعمة من الله ولكنها كفرت بهذه النعمة فحل بها غضب الله قال تعالى :﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلا قَريَة كَانَت ءَامِنَة مُّطمَئِنَّة يَأتِيهَا رِزقُهَا رَغَدا مِّن كُلِّ مَكَان فَكَفَرَت بِأَنعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلجُوعِ وَٱلخَوفِ بِمَا كَانُواْ يَصنَعُونَ﴾ [19] .

وممّا ورد من أنواع التناص المباشر ما جاء في السرد الروائي مصوراً الحالة التي صار إليها الأدباء وطلاب الجامعة في تملقهم للنظام لكسب وده ((طلاب الجامعة وأدباء المدينة يقولون كلاماً كثيراً ولا نفقه كثيراً مما يقولون يحرفون الكلم عن مواضعه ...)) [20] وهذا النموذج يتداخل مع ثلاثة مواضع في القرآن الكريم أولها قوله تعالى :﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعنَا وَعَصَينَا وَٱسمَع غَيرَ مُسمَع وَرَٰعِنَا لَيَّا بِأَلسِنَتِهِم وَطَعنا فِي ٱلدِّينِ وَلَو أَنَّهُم قَالُواْ سَمِعنَا وَأَطَعنَا وَٱسمَع وَٱنظُرنَا لَكَانَ خَيرا لَّهُم وَأَقوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفرِهِم فَلَا يُؤمِنُونَ إِلَّا قَلِيلا ﴾[21] . وثانيها قوله تعالى :﴿ فَبِمَا نَقضِهِم مِّيثَٰقَهُم لَعَنَّٰهُم وَجَعَلنَا قُلُوبَهُم قَٰسِيَة يُحَرِّفُونَ ٱلكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَة مِّنهُم إِلَّا قَلِيلا مِّنهُم فَٱعفُ عَنهُم وَٱصفَح إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلمُحسِنِينَ﴾[22] .

وثالثهما قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَاٱلرَّسُولُ لَا يَحزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلكُفرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ءَامَنَّا بِأَفوَٰهِهِم وَلَم تُؤمِن قُلُوبُهُم وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَومٍ ءَاخَرِينَ لَم يَأتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلكَلِمَ مِن بَعدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِن أُوتِيتُم هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّم تُؤتَوهُ فَٱحذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتنَتَهُ

ُقَلَن تَملِكَ لَهُ ُمِنَ ٱللَّهِ شَيا أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَم يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُم لَهُم فِي ٱلدُّنيَا خِزي وَلَهُم فِي ٱلأخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيم﴾ [23] .

فقد صور الكاتب ما يقوله الأدباء وطلاب الجامعة بما يقوله اليهود في ضلالهم وعنادهم وفي تحريفهم للصفات التي ذكرت في كتبهم وهي صفات لا تنطبق إلا على النبي ﷺفجحدوا ذلك وقلبوا الحقائق، وهذه حال طلبة الجامعة والأدباء في تلك المدينة، وكذلك الحال في الآية الثانية فقد صورهم الكاتب بحال بني اسرائيل في نقضهم للميثاق وتحريفهم للكلام، وفي الآية الثالثة صورهم بالمنافقين الذين يقولون بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وكذلك اليهود الذين اشتهروا بتحريف كلام الله تعالى ، فالتناص في هذه الآيات هدف منه الكاتب بيان ما وصلت إليه الطبقة المتعلمة من انحطاط فيما يصرحون به من كلام بعيد عن الحقيقة والواقع الذي تعيشه البلاد .

وفي تناص آخر يوظف الكاتب قصة سيدنا يوسف عليه السلام في تصوير حالة والدة بطل الرواية (فخر الدين) وهي حزينة على ابنها الذي تم سجنه حتى كادت تهلك من شدة الحزن ((بكت أمي حين رأت صورتك في البيت وأبي تسلل لواذاً إلى بيتكم حيث جدتي تجلس إلى موقد النار يتوقد من نار حزنها عليك. تفتأ تذكرك حتى تكاد تكون حرضاً أو تكون من الهالكين. لم نعد نذكر اسمك أمامها إشفاقاً منا عليها فعيناها تكاد تبيض من الحزن وقلبها ينفطر شوقاً إليك)) [24] في هذا النموذج الذي يقرأ فيه بطل الرواية الرسالة التي بعث بها إليه ابن أخته ويصور له الحالة الي وصلت إليها والدة البطل من شدة الحزن ، فهي تمثل شدة حزن سيدنا يعقوب عليه السلام على فراق ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن قال تعالى :﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنهُم وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبيَضَّت عَينَاهُ مِنَ ٱلحُزنِ فَهُوَ كَظِيم ٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفتَؤُاْ تَذكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَو تَكُونَ مِنَ ٱلهَٰلِكِينَ٨٥﴾ [25] .

ومن صور التناص ما ورد في السرد الروائي على لسان الراوي في تعجبه من القاضي الذي أدانه قبل أن يستمع له((ولكن القاضي ما شأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير))[26] فهي متناصة مع قصة موسى عليه السلام مع قومه ﴿ وَإِذ قُلتُم يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصبِرَ عَلَىٰ طَعَام وَٰحِد فَٱدعُ لَنَا رَبَّكَ يُخرِج لَنَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلأَرضُ مِن بَقلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَستَبدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيرٌ ٱهبِطُواْ مِصرا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلتُم﴾[27] ، فالعلاقة بين القاضي وبين قوم موسى أنهم استبدلوا الطعام الذي منّ الله عليهم به (المن والسلوى) بما أقل منه مرتبة وتعجب موسى عليه السلام منهم، أمّا القاضي فبدل أن يطلق سراحه وهو الحكم الأفضل كما كان يتوقع فخرالدين وهو الشخصية المحورية في الرواية ولكن القاضي أودعه السجن، فتعجب فخرالدين لهذا الحكم الذي أُسس على تهم باطلة كما ورد في السرد.

ثانيا التناص غير المباشر:

وهو الذي يتم استنتاجه من النص الأدبي ويكون بالمعنى وهو ما يُسمى بتناص الأفكار، والملاحظ أن التناص في رواية (برج الرومي أبواب الموت) كان معظمه تناصاً مباشراً حيث اعتمد الكاتب عليه ليصل نصه إلى المتلقي ويقنعه بما يقول، فآيات القرآن الكريم لها تأثير كبير في نفسية المتلقي وفي تصوير الواقع الذي تمثله الرواية.

من صور التناص الغير مباشر ما ورد في السرد الروائي على لسان أحد الرجال الذين يسعون في خدمة الوالي سعياً للوصول إلى غايتهم وهي رضا الوالي عنه ((واذكرني عند والينا بخير فإني أحب أن يرفع ذكري عنده ولست أبغي أكثر من ذلك جزاء)) [28] وهذ المقطع الروائي يتناص مع قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاج مِّنهُمَا ٱذكُرنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيطَٰنُ ذِكرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجنِ بِضعَ سِنِينَ﴾ [29] ، فيلتقي النصان في أن كلا من الشخصيتين تريدان الرضا من الحاكم ونيل حبه لهما وهذا سمة بعض البشر في التملق بهدف الوصول لمبتغاها .

ومن نماذج التناص غير المباشر في السرد ما ورد على لسان بطل الرواية فخرالدين من خلال الحوار الداخلي مع نفسه((تزاورت عنه ذات اليمين. كان شعاع الشمس المتسلل من نافذة الغرفة ساطعا ومفاجئاً فلم تحتمله عيناي)) [30]وهذا يتناص مع قوله تعالى : ﴿وَتَرَى ٱلشَّمسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهفِهِم ذَاتَ ٱليَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقرِضُهُم ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُم فِي فَجوَة مِّنهُ ذَٰلِكَ مِن ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلمُهتَدِ وَمَن يُضلِل فَلَن تَجِدَ لَهُ ۥ وَلِيّا مُّرشِدا ﴾[31]

وفي تناص آخر ورد في السرد يروي فيه فخرالدين ما رآه في منامه حيث يصف شوارع المدينة وقد خلت من سكانها ((ورأيتني أجوب شوارع المدينة وقد خلت من أهلها))[32] وفيها تناص مع قوله تعالى:﴿ أَو كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَريَة وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعدَ مَوتِهَا﴾ [33] ، والعلاقة بين فخرالدين بطل الرواية وذلك الرجل الذي ورد في الآية وهو واقف على إنقاذ تلك القرية التي لم يبق منها شيئاً مستبعداً عودتها للحياة ومتجاهلاً قدرة الله سبحانه وتعالى على ذلك، أمّا بطل الرواية رأى ذلك في منامه ولم يكن حقيقة وهذا مبعثه الحالة النفسية التي تسيطر على بطل الرواية وما يلقاه من تنكيل وتعذيب داخل السجن .

ثانياً الحديث النبوي الشريف :

الحديث النبوي هو المصدر الثاني للتشريع وبما امتاز به من بلاغة القول وفصاحة اللفظ وقوة التعبير وسلاسة الأسلوب، فكل هذه الميزات جعلت الأدباء العرب يستحضرونهم في نصوصهم ويعدون كتابته بما يتماشى وتجربتهم الشعورية ، ولهذا نجد أن الكثير من النصوص الأدبية تتداخل مع نصوص الحديث النبوي، وهذا يدل على قوة تأثير الحديث النبوي وبلاغته وحب الأدباء للرسول ﷺ ، وخدمة لنصوصهم فنياً وجمالياً .

وأول نماذج التناص مع الحديث النبوي ما جاء في السرد في حديث بطل الرواية فخرالدين مع أمه خلال زيارتها له في سجنه ((بسمتنا هي حديثنا يا أماه نفضي من خلالها بأسرارنا وأتعابنا

ونواسي بها بعضنا كأننا حين نبتسم والعصا تعلو ظهورنا نقول لبعضنا صبراً فإنما هي الضربة الأولى))[34] فهو تناص مع قول الرسولﷺ في حديثه الذي يحث فيه على الصبر (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) [35] فالعلاقة بين النصين أن في النص الروائي يحث السجناء بعضهم على تحمل التعذيب الذي يقوم به المسئولون عن السجن، فالضربة الأولى هي المؤلمة وبعدها يتعود جسم السجين على الضرب ولم يعد يؤثر فيه .بينما نص الحديث يحث الإنسان على الصبر عند مصيبة الموت حتى يؤجر الإنسان على ذلك ولا يؤثم بسبب جزعه .

يستمر الكاتب في الاستعانة بالحديث النبوي في روايته من ذلك ما ورد في السرد في قوله ((لا أعود إليه بملكي ولكن حملته فاصطبغ به قلمي لا ملجأ له منه إلاّ إليه كل ما حولنا يهمس إليك سراً أو جهراً أن الجلاد هنا)) [36] فهو تناص مع قول الرسولﷺ يوصي المسلم عندما يريد أن يأوي إلى فراشه ببعض الأمور التي تنفعه في حياته وبعد مماته من ذلك قوله ((اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلاّ إليك،...))[37] وفي تناص آخر مع الحديث النبوي الشريف يصف الكاتب ما يحدث للمساجين داخل أبواب السجن ومعاملة العسس لهم وذلك على لسان شخصية الرواية (فخر الدين) يقول الراوي: ((أو الحصول على رغيف يعطيكه الجلاد كأنما يرمي به إلى كلاب لا يفضل في طعمه إلاّ الجوع، تأكله كرهاً حتى تجد في جسمك ما يحميه من لسعة السياط، أو تراكم في هرج ومرج أو يتعالى صياحكم فذلكم الدش أو الاستعداد له حيث علينا أن نتسابق كخيول رهان)) [38] فالكاتب يصف ما يحدث في السجن بين المساجين فيصبحون في حالة هرج ومرج عند موعد الدش(الاستحمام) وذلك لكثرة المساجين وضيق الوقت المحدد للدش، فالهرج والمرج هنا هو التدافع بين المساجين واستعمال القوة وتعالي صوتهم للحصول على الدش مما يؤدي إلى إلحاق الضرر بين المساجين وهذا يتناص مع قول الرسولﷺ((لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن،

ويكثر الهرج – وهو القتل القتل – حتى يكثر فيكم المال فيفيض)) [39] فالعلاقة بين النصين أن النص المروي يصور الحالة التي صار إليها المساجين بسبب معاملة العسس وعدم توفر أبسط الأمور وهو مكان الاستحمام، فيحدث الصراخ والتدافع وتبدأ الفوضى داخل السجن للحصول على الدش، أمّا الحديث النبوي فالنبي ﷺينبه المسلمين عن قيام الساعة وعلاماتها ومنها الهرج وهو القتل بين الناس وهذا شبيه ما يحدث بين المساجين عند السماح لهم بالدش .

وفي نفس السياق ينتقل الكاتب من حدث إلى آخر دون أي خلال في النص الروائي في عملية تناص أخرى مع الحديث النبوي فأصبح النص الروائي عبارة عن ((لوحة فيسفسائية من الاقتباسات. وكل نص هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى))[40] وفي هذه النموذج السردي يتقاطع الكاتب مع خطبة الوداع للنبيﷺ((قال الشاب وكان يظن أننا في الأمر سواء : إذا طلب منك أن تنزع ثيابك فلا تفعل، سيغلظون لك القول قليلاً ثم يكفّون عنك أيديهم بعدما يضربونك ضرباً غير مبرح. اطمأن قلبي قليلاً وعلمت صباحاً وأنا معلّق كما ولدتني أمي،...والعصا تنزل لا تكاد تفارق بدني، ... أن أبا المغاليق يصنّف الناس بحسب درجات السقوط)) [41] فهناك تقاطع في النص الروائي (ضرب غير مبرح) مع خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع في قوله يوصي المسلمين بالنساء خيراً : ((أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حقاً لكم أن لا يواطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح))[42] فالتناص بين النص الروائي ونص خطبة الوداع أن النصيحة في النص الروائي جاءت على لسان أحد الشباب المسجونين إلى فخر الدين بأنهم لن يقسو عليه في الضرب وسيضربونه ضرباً غير مبرح كما فعلوا معه، ولكن الوضع مختلف فالسجناء ليسوا سواسية في المعاملة فما لقيه فخرالدين من معاملة من قبل المسؤول عن السجن (أبو المغاليق) لم يكن يتوقعه، وقد وصف ذلك خلال السرد الروائي،

أمّا نص الخطبة فهي توجيهات نبوية للمسلمين بكيفية معاملة النساء ومعاقبتهم في حالة الخطأ بطريقة دينية وتربوية تحفظ للرجل حقوقه وللمرأة حقوقها .

ومجمل القول أن التناص الديني في رواية (برج الرومي أبواب الموت) قد أخذ حيزاً كبيراً ،استطاع الكاتب أن يوظفه في الرقي بنصه الروائي دون أي خلال في عناصر الرواية أو في بنائها الفني .

الخاتمة

1 – إن التناص ظاهرة نقدية حديثة ولكن لها جذور في النقد العربي القديم .

2 – من الصعب وضع مصطلح واحد لمفهوم التناص وهذا راجع لاختلاف وجهات النظر

3 – إن التناص يفرض على الكاتب أن يمتلك إلى جانب موهبته الابداعية ثقافة موسعة وقدرة على توظيف النصوص الأخرى في انتاجه الأدبي .

4 – التناص تقنية من تقنيات الكتابة الأدبية يلجأ إليها الكاتب لإكمال نصه ونقل القارئ من زمن لأخر ومن حدث إلى حدث لزيادة لهفه في معرفة العلاقة بين النصوص السابقة واللاحقة ووجه المقارنة بينهما .

5 – النص الأدبي يبقى مفتوحاً للقراء وغير مغلق ، فالكاتب له الحرية في الرجوع للنصوص السابقة وتضمينها في نصه ليبرهن عن ثقافته واطلاعه ومدى قدرته على التفاعل مع النصوص السابقة.

6– أسهم التناص في الكشف عن تداخل الأجناس الأدبية سواء كان مباشر أم غير مباشر .

7 – استطاع الكاتب أن يوظف التناص الديني بما ينسجم وأفكاره دون أن يؤثر ذلك على النص الأصلي بل يقويه ويحقق معه الرؤية الدلالية.

8 – التناص القرآني كان له الحضور الأكثر في معظم صفحات الرواية، بل نجد في الصفحة الواحدة أكثر من حالة تناص، وهذا يدل على الثقافة الدينية المستمد من القرآن الكريم .

هوامش البحث :

1 – ابن منظور ، لسان العرب ، مج 7 ، ص97– 98 .

2 – سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، ص2 .

3 – جوليا كريستيفا،علم النص، تر/ فريد الزاهي ، ص 21 .

4 – رولان بارت، درس السيميولوجيا، تر/ عبد السلام بن عبد العالي، ص63.

5 – المرجع السابق ، ص64.

6 – مارك أنجينو ، في أصول الخطاب النقدي الجديد، تر/ أحمد المديني ، ص461.

7 – جيرار جنيت، مدخل جامع للنص، تر/عبد الرحمن أيوب ، ص90.

8 – المرجع السابق ، ص90.

9 – محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري ، ص120.

10 – المرجع السابق ، ص123.

11 – عبدالله الغذامي، ثقافة الأسئلة مقالات في النقد والنظرية ، ص111.

12 – الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح / محمد أبوالفضل – علي البجاوي، ص214 – 215.

13 – أحمد الزغبي، التناص نظرياً وتطبيقياً ، ص37.

14 – سورة الحِجر 9 .

15 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت ، ص 37 – 70 – 105– 109.

16 – المرجع السابق ، ص9.

17 – سورة إبراهيم 24 – 25 .

18 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ص15 .

19 – سورة النحل 112 .

20 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ص59 .

21 – سورة النساء 46 .

22 – سورة المائدة 14 .

23 – سورة المائدة 43.

24 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ص57 .

25 – سورة يوسف 57.

26 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ص70 .

27 – سورة البقرة 61

28 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ص59 .

29 – سورة يوسف 42.

30 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ص59 .

31 – سورة الكهف 27.

32 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ص59 .

33 – سورة البقرة 254 .

34 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ص59 .

35 – صحيح البخاري ،ص 310 .

36 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ص59 .

37 – صحيح البخاري ،ص 1575.

38 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ص59 .

39 – صحيح البخاري ،ص 251 – 252 .

40 – عبدالله الغذامي ، ثقافة الأسئلة مقالات في النقد والنظرية ، ص326.

41 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ص19 .

42 – الترمذي ، سنن الترمذي ،ج1 ،ص274.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم (رواية حفص)

1 – ابن منظور ، لسان العرب ، د . ط ، دار صادر ، دار بيروت د . س

2 – أحمد الزغبي ، التناص نظرياً وتطبيقياً، ط2 ، دار عمون ،الأردن ،. 2000م

3 – البخاري، صحيح البخاري، تح/ مجموعة من العلماء، ط 1، دار ابن كثير، دمشق – بيروت. ،2002م .

4 – الترمذي ، سنن الترمذي، تح/ أحمد شاكر، ط2 ، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة ، 1978م.

5– الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح / محمد أبوالفضل – علي البجاوي، مطبعة عيسى الحلبي، 1966م.

6 – جيرار جنيت، مدخل جامع للنص، تر/عبد الرحمن أيوب ، د . ط ، دار توبقال، الدار البيضاء . د .س

7– جوليا كريستيفا، علم النص، تر/ فريد الزاهي، ط1 ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1991م .

8 – رولان بارت، درس السيميولوجيا، تر/ عبد السلام بن عبد العالي،ط3 ، دار توبقال، الدار البيضاء. ،1993م .

9– سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ، ط2 ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، 2001م .

10 – سمير ساسي ، برج الرومي أبواب الموت، ط3 ، منشورات كارم الشريف، تونس. 2011م .

11 – عبدالله الغذامي، ثقافة الأسئلة مقالات في النقد والنظرية، ط3 ،دار سعاد، الكويت. 1993م .

12 – مارك أنجينو، في أصول الخطاب النقدي الجديد، تر/ أحمد المديني، دار الشؤون الثقافيةالعامة،1987م.

13 – محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)، ط3 ،المركز الثقافي العربي، الرباط ، 1992م.